الفصل الثانى

القلب والإبدال

تكلمنا عن أنواع الاشتقاق الصغير والكبير، والأكبر، وبينا أن الكبير قائم على تقليب المواد اللغوية بتقديم بعض حروفها على بعض، وهذا هو المعروف عند الصرفيين بالقلب المكانى، كما بينا – أيضا – أن الاشتقاق الأكبر قائم على أساس أن بعض الحروف يختلف بين لفظ وآخر ويكون المختلف فيه متحدا مخرجا أو صفة وهذا هو المعروف بالإبدال.

ويقتضينا ذلك – بعد أن عرفنا أن لكل منهما سرا من أسرار اللغة فى دوران المادة حول معنى واحد، ومناسبة الحروف للمعانى أن نبين معنى القلب والإبدال ومنشأهما باعتبارهما مصدر هذين النوعين من الاشتقاق، وأنهما – بذلك – عاملان مهمان فى نمو الثروة اللغوية، وتفرعها على نحو واسع مفيد فى الوجوه المشار إليها.

أولا : القلب

تعريفه :

هو تقديم بعض حروف الكلمة على بعض، ويحدث فى الصحيح، والمعتل، والمهموز إلا أنه فى الأخيرين أكثر وقد أورد السيوطى فى فصل خاص عن القلب أمثلة كثيرة منها – جبذ وجذب، وما أطيبه، وما أيطبه، وعاث وعثا، إذا أفسد، وهفا فؤاده وفها، واعتاقه الشىء، واعتقاه إذا حبسه، وشاءنى الأمر وشآنى : إذا أحزننى.

وقد ورد القلب فى كلام العرب على صور كثيرة معروفة فى فن الصرف منها تقديم اللام على العين كآن وأنى، أو على الفاء كأشياء – على أرجح الأقوال – أو تقديم العين على الفاء كجاه فى وجه أو تأخير الفاء عن اللام كالطادى فى الواطد والحادى فى الواحد، وغير ذلك مما هو معروف هناك.

آراء العلمـاء فى نشـأته

١ - رأى البصريين :

يرى البصريون أن الكلمتين المتحدتين فى الحروف المختلفتين فى الترتيب قد نشأتا عن أحد طريقين :

(أ) الطريق الأول - القلب :

إذا أمكن الحكم على إحدى الكلمتين بالأصالة والأخرى بالفرعية بأن تكون إحدى الكلمتين أكثر تصرفا من الأخرى أو أكثر شيوعا فى الاستعمال .

فمن الأول : أنى وآن، والأولى أصل لأنها أكثر تصرفا لورود المصدر منها دون الثانية، وكذلك يئس يأسا وأيس مقلوب منه، فيئس له مصدر وأيس لا مصدر له، ومن الثانى شاكى السلاح، وشائك السلاح، وجرف هار وهائر، فشاكى وهار أكثر استعمالا من نظيريهما ولذلك عد كل منهما أصلا لصاحبه[١] وهذا يكون عند قبيلة واحدة أو عند العرب جميعا .

(ب) الطريق الثانى - اختلاف اللهجات :

وذلك إذا لم يمكن الحكم على إحدى الكلمتين بأنها أصل للأخرى . وذلك إذا تساويتا فى التصرف والاستعمال، فقولهم جذب وجبذ ليس أحدهما مقلوبا عن صاحبه، وذلك أنهما جميعا يتصرفان تصرفا واحدا نحو جذب يجذب جذبا فهو جاذب، والمفعول مجذوب، وجبذ يجبذ جبذا فهو جابذ والمفعول مجبوذ، فإذا جعلت مع هذا أحدهما أصلا لصاحبه فسد ذلك [٢] .

فالكلمتان - هنا - تساويتا تصرفا واستعمالا فكلاهما أصل قائم برأسه، وإحدى الكلمتين تستعمل فى قبيلة والأخرى فى قبيلة أخرى فهما من اختلاف اللهجات .

٢ - رأى اللغويين ونحاة الكوفة :

يرى هؤلاء العلماء أن اختلاف الكلمتين على النحو السابق يعد قلبا مكانيا، لا فرق بين صيغة وأخرى، وأن الناطق به العرب جميعهم، أو قبيلة معينة،

---

(١) المزهر ١ / ٤٨١ (٢) الخصائص ٢ / ٧٠

وقد أخذ بهذه الوجهة ابن دريد فى الجمهرة وأبو عبيد فى الغريب المصنف، وابن النحاس فى شرحه على المعلقات، وعلى ذلك فلا يسوغ أن يكون من باب اختلاف اللهجات [١] .

ويبدو ضعف المذهب البصرى لأنه بنى على أسس واهية لأن قلة تصرف الكلمة لا تصح أن تكون مقياسا لفرعيتها لجواز أن تكون متصرفة وأماتها العرب أو لم يصل إليها الرواة.

ومقياس الاستعمال غير منضبط لتعريضه الكلمة لأحكام مختلفة حسب الذيوع وعدمه.

كذلك يبدو ضعف وجهة اللغويين، والكوفيين بناء على عدم استقرار فكرتهم عند التطبيق على الأمثلة، فعلى الرغم من أنهم حكموا على اكرهف بأنها مقلوبة عن اكفهر[٢] نجد صاحب اللسان يذكر أن اكرهف لغة فى اكفهر، وفى موضع آخر قال: «والمكرهف لغة فى المكفهر أو مقلوبة عنه وكذلك ورد اضمحل لغة جمهور العرب، وامضحل لغة قبيلة معينة، فهى عند بنى كلاب[٣].

ويبدو أن اختلاف الترتيب ينشأ من اختلاف القبائل ولا ضير فى تسميته قلبا مكانيا مع ملاحظة أنه نشأ من اختلاف القبائل، فلا تفرقة بين القلب، وبين اختلاف اللهجات.

فحادثة القلب الصوتية قد ترجع فى بعض الألفاظ إلى عهد بعيد جدا فى تاريخ اللغة بحيث تأصلت كل واحدة من اللفظتين كمدح وحمد، وجذب وجبذ فى قبيلة من القبائل، أو فى معنى مختلف بعض الاختلاف عن معنى اللفظة الأخرى حتى بدت للباحث أنها لغات متعددة وتنوسيت الحادثة الصوتية التى هى قلب مواقع الحروف [٤] .

---

(١) المزهر ١/٤٧٦ – ٤٨١ (٢) الخصائص ٢/٧٣ ، ٧٤ والمزهر ٤٧٦١

(٣) فقه اللغة د. نجا ٣/٥٨ ، ٥٩ ، ٤/٥٣ ، ٥٤ وانظر: اللسان ط بولاق ٦/٤٦٨ ، ١٣/٤١٤ وط بيروت ٩/٢٩٨

(٤) فقه اللغة للمبارك ٨٧

ثانيا : الإبـــدال

تعريفـــــه :

فى اللغة : مصدر أبدلت كذا من كذا إذا أقمته مقامه، والأصل فيه جعل شيء مكان شيء آخر [١] .

وفى الاصطلاح : جعل حرف مكان آخر مطلقا [٢] .

وهذا تعريف عام يشمل الصرفى واللغوى.

ولم يلاحظ الصرفيون فى تعريف الإبدال – بالمعنى السابق – أية اعتبارات تجوز التبادل، بين الحرفين وربما كان ذلك منهم لأنهم نظروا نظرة عامة، فوجدوا بعض الحروف ينوب عن الآخر فى كلمات كثيرة سواء المطرد منها وغيره حتى عرفوا الإبدال بأنه جعل حرف مكان آخر مطلقا.

ولذا نلاحظ أن الإبدال نوعان:

١ – المطرد: وهو الذى يخضع لقواعد منتظمة، وحروفه (هدأت موطيا) فالواو والياء تقلبان همزة – مثلا – إذا تطرفتا إثر ألف زائدة كما فى كساء وبناء إذ أصلهما كساو وبناى ، والواو إذا تحركت وانفتح ما قبلها قلبت ألفا كما فى قال فأصلها قول على ما هو معروف فى علم التصريف، وهذا النوع لا صلة له ببحثنا لأنه لا يرد على وجوه مختلفة بل ينطق بطريقة واحدة عند العرب جميعا.

٢ – غير المطرد: وهو الذى لا تحكمه قواعد أو قوانين ولذا فهو يسلك

---

(١) لسان العرب ٩ / ٥ ، ١٣ / ٥٠ ، ٥١

(٢) فى كتب التصريف تفريق بين الإبدال والتعويض والقلب وبيان النسبة بينها فهى تعرف الإبدال بأنه جعل حرف مكان آخر مطلقا، والتعويض بأنه جعل حرف خلفا عن حرف آخر أو أكثر سواء كان المعوض فى غير مكان المعوض عنه مثل عدة وابن أو فى مكانه نحو اصطبر ومخيريج فى تصغير مستخرج، فكل إبدال تعويض ولا عكس، والقلب هو: جعل حرف من حروف العلة والهمزة مكان حرف منها مثل قام وقائم فكل قلب إبدال ولا عكس، وقد خرج التعويض من تعريف الإبدال بقيد المكان وخرج القلب بقيد الإطلاق إذ هو يختص بكون المبدل فى مكان المبدل منه ولا يختص بحروف العلة، ومن راعى الاختصاص جعل بينها التباين. انظر: الخصائص ١ / ٢٦٥ ، ٢٦٦ والأشمونى مع الصبان ٤ / ٢٧٩ ، ٢٨٠ والتصريح ٢ / ٣٦٦ والأشباه والنظائر ١٢٣١ ، ١٢٥ ومقدمة الإبدال لأبى الطيب اللغوى ١ / ٩

طرائق مختلفة عند قبائل العرب، فقبيلة تقول: درأ وأخرى: دره: وقبيلة تقول: اجتمعوا وأخرى تقول: اجدمعوا وغير ذلك، وهذا النوع هو مجال بحثنا [١].

ويمكن معرفة الإبدال – عند الصرفيين – بأمور كثيرة منها:

(أ) الرجوع إلى الأصل كما فى كلمة – قال – فهى من القول، أو النظائر من المشتقات، كما فى تراث فالتاء مبدلة من الواو لوجودها فى ورث ووارث.

(ب) كثرة التصريف وقلته مثل جدث وجدف فالأول أصل لقولهم أجداث ولم يقولوا أجداف.

(جـ) قلة استعمال البدل كما فى الثعالى والأرانى فالياء فيهما بدل من الباء فى الثعالب والأرانب.

(د) أن يترتب على القول بالأصالة حدوث وزن لا يوجد فى العربية كما فى (هراق) فالهاء مبدلة من الهمزة إذ لا يوجد فى اللغة العربية وزن هفعل [٢]. ومثل ازدجر واصطبر إذ لا يوجد وزن افدعل أو افطعل.

أهميـــة الإبـــدال :

للإبدال اللغوى أهمية كبيرة نذكر بعضها فيما يلى:

١ – تنويع المعانى واتساع دائراتها « فأنت ترى أن الوشوشة تنصرف إلى صوت لا تنصرف إليه الوسوسة أو الوصوصة وأن الهديل غير الهدير وأن فلج غير فرج أو فلح [٣] ، وهذه القيمة التعبيرية للحرف كانت لابن جنى اليد الطولى فى إثباتها والبرهنة عليها من واقع اللغة ففى باب (إمساس الألفاظ أشباه المعانى) ساق أمثلة متعددة تفيد تنوع المعنى تبعا لاختلاف الحروف وبنى كلامه على المناسبة بين المعانى والأصوات الطبيعية المعبرة عنها يقول « فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع ونهج متلئب عند عارفيه مأموم وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها فيعدلونها بها ويحتذونها عليها وذلك أكثر مما نقدره وأضعاف ما

---

(١) اللهجات العربية د. نجا ٥٥

(٢) الأشمونى مع الصبان ٤/٢٨٣ – ٢٨٥

(٣) التطور اللغوى التاريخى ١١٥ وفقه اللغة للمبارك ٥٠

نستشعره »[1] ومن ذلك قولهم: النضح للماء ونحوه والنضخ أقوى من النضح قال سبحانه: « فيهما عينان نضاختان » فجعلوا الحاء لرقتها للماء الضعيف والخاء لغلظتها لما هو أقوى منه[2] وهناك أمثلة كثيرة توحى بمعان مهمة زدناها بيانا فى حديثنا عن الاشتقاق.

٢ – معرفة الإبدال تؤدى إلى وقوف الإنسان على المعانى الحقيقية للألفاظ وتفسيرها بالمعنى المناسب فى التراكيب التى تقع فيها وهذا يفيد فى فهم النصوص الأدبية فإن أدنى زيغ فى الكشف عن معنى الألفاظ أو الصور الأدبية يؤدى إلى البعد عن أهداف النص ومراد صاحبه وقد بعد أحدهم عن الصواب حينما حاول أن يفسر الشطر الثانى من فائية ابن زيدون وهو:

سرى الأين من آثاره فيه مزحف .

فقد فسر الأين بالتعب والإعياء والمعروف أن المزحف هو موضع زحف الحية ولا ترابط بين الأين بهذا المعنى الذى فسره وبين المزحف[3].

٣ – قد ينتفع بالإبدال فى المصطلحات العلمية لتخصيص اللفظين المتعاقبين لمسميين متشابهين بينهما علاقة معينة، فالأرثة والأرفة[4] يمكن وضع الكلمة الأولى – كما قال الأستاذ التنوخى – لكلمة borne (أى المنار) بين الأرضين المتجاورتين دفعا لنزاع الجارين والكلمة الثانية للحد بين الأرضين وللأمير مصطفى الشهابى معجم زراعى اتخذه مرجعا له فى تحقيق ما ورد فى كتاب أبى الطيب من ألفاظ النبات وقال إنه يجعل فى معجمه التأريث مقابل Abornage بالفرنسية والتأريف مقابل Codastre[5].

٤ – دفع التصحيف قال أبو حيان سمعت أبا عمرو الشيبانى يقول: ما ذقت عدوفا ولا عدوفة قال: وكنت عند يزيد بن مزيد الشيبانى فأنشدته بيت قيس بن زهير:

---

(١) الخصائص ٢/١٥٧ (٢) المصدر السابق ١٥٨

(٣) مقدمة كتاب الإبدال لأبى الطيب اللغوى ص ٤٠ والمزهر ١/٢٢٢ واللسان ١١/٢٩

(٤) الأرث والأرف: الحد بين الأرضين. لسان العرب ٢/٤١٦، ١٠/٣٤٥، ٣٤٦

(٥) مقدمة كتاب الإبدال ص ٤١

ومجنبــات ما يذقن عــدوفة   يقذفن بالمهــرات والأمهــار [١]

بالدال فقال لى يزيد: صحفت يا أبا عمرو إنما هى عذوفة بالذال قال: فقلت له: لم أصحف أنا ولا أنت تقول ربيعة هذا الحرف بالذال وسائر العرب بالدال [٢].

٥ ـ الربط بين الألفاظ المتشابهة فى اللغات السامية فالعربية والسريانية والعبرية وغيرها من أخواتها ترجع إلى لغة واحدة هى السامية الأم إلا أنها اختلفت لاختلاف البيئات والأحوال وأحيانا يكون هذا الإبدال قياسيا فالثاء فى العربية تقابلها الشين فى العبرية والتاء فى السريانية فيثب العربية يقابلها Yashav العبرية ويتب السريانية، وأمثلة هذا التبادل كثيرة فى الأخوات الساميات.

علاقات التبــادل :

كان للغويين اتجاه خاص فى بحث الإبدال، بنوه على أساس أن يكون بين البدل والمبدل منه علاقة صوتية تتمثل فى اتحاد المخارج أو تقاربها والتماثل أو التقارب فى بعض الصفات ورتبوا على ذلك مناسبة الحروف لمعانيها على نحو يكشف عن سر استعمال الحروف كما ظهر لنا فيما سموه الاشتقاق الأكبر، وأساسه هو الإبدال [٣].

ومما اتحد المختلف فيه مخرجا قولهم: خامل وخامن، وهتل وهطل فاللام والنون من مخرج واحد هو طرف اللسان مع اللثة العليا، والتاء والطاء من طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا.

ومما تقارب الحرف المختلف فيه مخرجا قولهم: الناس والنات، فالسين من طرف اللسان مع أصول الثنايا السفلى والتاء من طرفه مع أصول الثنايا العليا، وهما متحدتان فى بعض الصفات، فأبدلت السين تاء لموافقتها إياها فى الهمس وتجاور المخارج.

---

(١) المجنبات: الخيل البعيدات ما بين الرجلين وهو مدح لها والعدف: الأكل وما يذقن عدوفة: أى شيئا. اللسان ١ / ٢٧٠ ، ١١ / ١٣٩ ، ١٤٠

(٢) فقه اللغة للمبارك ٥٠

(٣) الفلسفة اللغوية ٣٦ ، ٣٧ وفيه أمثلة للإبدال فى العبرية والأشورية.

ومن ذلك قولهم: السراط والصراط، ومسقع، ومصقع، وسبقت وصبقت، وقطل وقطم، فهى مع اتفاق الحرف المختلف فيه فى المخرج أو تقاربه تتفق فى بعض الصفات فالسين والصاد تشتركان فى الهمس والرخاوة والصفير، واللام والميم تشتركان فى الجهر، والتوسط والذلاقة والاستفال، والانفتاح مما يسوغ الإبدال، ويقرره .

آراء العلماء فى الإبدال

اختلف علماء اللغة فى نشأة هذا النوع من الكلمات التى يبدو التقارب بين حروفها ومعانيها، ونحن نذكر لك الآراء فى ذلك.

١ - نشأت كلمات هذا النوع عن اختلاف اللهجات:

قال بذلك أبو الطيب اللغوى وابن السكيت وأبو محمد البطليوسى وابن خالويه وأبو على القالى وغيرهم. قال أبو الطيب فى كتابه: «ليس المراد بالإبدال أن العرب تتعمد تعويض حرف من حرف، وإنما هى لغات مختلفة لمعان متفقة، تتقارب اللفظتان فى لغتين لمعنى واحد حتى لا يختلفا إلا فى حرف واحد[١].

قال: والدليل على ذلك أن قبيلة واحدة لا تتكلم بكلمة طورا مهموزة وطورا غير مهموزة، ولا بالصاد مرة وبالسين أخرى، وكذلك إبدال لام التعريف ميما، والهمزة المصدرة عينا كقولهم فى نحو: أن: عن، لا تشترك العرب فى شىء من ذلك إنما يقول هذا قوم وذاك آخرون[٢].

ونقل السيوطى عن العلماء الآخرين ما يؤكد ميلهم إلى هذا الرأى وأخذهم به[٣].

٢ - نشأت كلمات هذا النوع عن أحد طريقين:

(أ) الطريق الأول: الإبدال:

إذا أمكن الحكم بأصالة إحدى الكلمتين وفرعية الأخرى تبعا لكثرة التصرف وشيوع الاستعمال، وهذا يمكن حدوثه عند قبيلة واحدة من العرب أو عند العرب جميعا.

---

(١) سر الصناعة ١ / ١٧٢ (٢) المزهر ١ / ٤٦٠ (٣) المصدر السابق ١ / ٤٦٠

(ب) الطريق الثانى: اختلاف اللهجات:

وذلك إذا لم يمكن الحكم بأصالة إحدى الكلمتين وفرعية الأخرى لتساويهما تصرفا واستعمالا، ويكون عند قبائل عربية متعددة.

وقد قال بهذا الرأى فريق آخر من العلماء على رأسهم ابن جنى، ووافقه ابن سيدة، وابن يعيش.

وهذا الحكم المبنى على الشيوع وكثرة التصرف قد تعرض لنقد علماء اللغة فوجهته غير صالحة لأن تكون مقياسا علميا سديدا، فمقياس التصرف لا يعول عليه، ومقياس الاستعمال غير منضبط على ما بينا فى حديثنا السابق عن القلب.

أضف إلى ذلك أن أرباب هذا الرأى قد رجعوا عنه، فنحن نلاحظ أن ابن جنى وهو من زعماء هذا الرأى – قد أحس بضعف هذا المقياس فى قرارة نفسه فهو يقول – مثلا – فى الخصائص «فأما قولهم ما قام زيد بل عمرو، وبن عمرو فالنون بدل من اللام ألا ترى إلى كثرة استعمال (بل) وقلة استعمال (بن)، والحكم على الأكثر لا على الأقل، هذا هو الظاهر من أمره، ولست مع هذا أدفع أن يكون (بن) لغة قائمة برأسها [1].

فهذا دليل على عدم اعتداد ابن جنى بهذا المبدأ وتشككه فيه، وهذا – كما قال أستاذنا الدكتور نجا – يعطينا صورة صادقة عن ضعفه [2]. وقد أيد الرأى الأول فريق من علماء اللغة المحدثين [3] فالإبدال ينشأ من اختلاف اللهجات.

ويلاحظ أن هذا الرأى – على الرغم من أنه يجعل ألفاظ هذه الظاهرة من اختلاف اللهجات، لا ينسى أن التقارب بين الحروف ملحوظ فيها [4] وهذا يشير إلى تطور صوتى، وإن كان بين لهجات متعددة.

وبعد استعراضنا لهذه الآراء ومناقشتها نحس بأنه لابد لنا من نظرة واعية

---

(١) ٢/٨٤ (٢) اللهجات العربية ٥٨

(٣) انظر: اللهجات العربية د. نجا ٥٨ والتطور اللغوى التاريخى د، السامرائى ص١٠٨ – ١١٣ وفقه اللغة د. رافى ١٧٨، ١٧٩

(٤) لم يلتزم ذلك كثير ممن روى ألفاظ هذه الظاهرة من القدماء كأبى الطيب اللغوى. انظر كتابه: (الإبدال) جـ ١ صفحات ٢٠٥ – ٢٥٢ ومقدمة محققه ص ١٠، ١١

ومن تحليل علمى دقيق نتتبع به الظواهر المختلفة والدواعى الكثيرة التى أحاطت وتحيط باللغة، ونشأة مفرداتها والظروف التى عاشت فيها ومرت بها فى مراحلها التاريخية المتعددة، حتى نصل إلى الحقيقة «ونستنتج القانون الذى ينظم حوادثها إن كان لها قانون مطرد، وهذا يعتبر المفتاح لعلم الاشتقاق الذى يكشف الصلة بين كلمات تباعدت أصولها» (١).

أسباب الإبدال

الأسباب التى دعت - وتدعو - إلى استعمال بعض الحروف مكان بعض كثيرة، ومتشبعة، وربما رجع الاختلاف بين الأصوات إلى واحدة أو أكثر منها، وسأحاول - جهدى - استقصاءها جميعا، حتى نستطيع تفسير ما ورد من ألفاظ هذه الظاهرة تفسيرا صحيحا.

والذى جعلنا نفكر فى هذا التفسير وجود تلك الألفاظ فى لغتنا العربية، غير منسوبة إلى قائليها، أو غير محددة النسبة، فكتب اللغة تذكر أن هذا الاستعمال لهجة قيس أو لهجة تميم أو غيرهما من القبائل العربية دون الجزم بأنها لهذه القبيلة أو تلك.

وبعد عرضنا للأسباب وتحليلها، تحليلا علميا دقيقا، نحاول تطبيقها على بعض الكلمات، لنبين أن الدراسة الواعية للألفاظ التى تحويها ظاهرة الإبدال، يمكن إخراج الكثير منها عن دائرته، وعلى ضوء تلك الدراسة يمكن علاج هذه المشكلة اللغوية، التى اضطربت فيها الآراء، واختلفت فيها وجهات الباحثين قديما وحديثا.

١ - اختلاف اللهجات :

تختلف طبيعة الجزيرة العربية وبيئاتها الاجتماعية، بداوة وحضارة ولذلك أثره فى تعدد اللهجات.

واللغة عادة اجتماعية يقابل مخالفها بالسخرية والإنكار من جماعته التى ينتمى إليها.

---

(١) فقه اللغة للمبارك ٣٩

ومن المعروف أن أية جماعة إنسانية، تتمسك بالاستعمال اللغوى المتعارف بينها فلا تتخلى عنه، وقد روى عن أبى حاتم أنه قال لأم الهيثم: كيف تقولين أشد سوادا من ماذا؟ قالت: من حلك الغراب، قال: أفتقولينها من حنك الغراب؟ فقالت: لا أقولها أبدا (١).

ولذا فإن اختلاف اللهجات يعد من العوامل المهمة فى تفسير ظاهرة الإبدال.

فالقبائل البدوية تميل إلى الأصوات الشديدة، فى نطقها لأن طبيعتها تتناسب مع الفرقعات والأصوات السريعة، على حين تميل القبائل الحضرية إلى رخاوة تلك الأصوات الشديدة، فالباء والتاء والدال، والكاف قد ينطقها المتحضرون: فاء – سينا – زايا – شينا (٢).

ولا يتحول أحدهما عن طريقته إلا بعسر، وحين يريد النطق باللغة النموذجية، وهذا يحدث فى الأوساط العلمية اليوم حيث تلقى المحاضرات بالفصحى، ثم يعود ملقيها إلى طبيعته اللهجية بعد ذلك.

وقد تتسبب عوامل كثيرة فى جذب الإنسان إلى تغيير نطقه كسهولة الصوت الجديد، أو استحسانه أو رغبة فى تقليد شخص آخر أو تبعا لعوامل الزمن والثقافة أو غير ذلك مما يذكره اللغويون.

ولو أن علماء اللغة ورواتها نسبوا كل لفظ إلى صاحبه لقلل ذلك من خطر هذه الظاهرة ووجودها.

وبناء على محاولة نسبة النطق المعين إلى ذويه يمكن تفسير عدد غير قليل من الألفاظ، قيل أنه من الإبدال.

٢ – التطور الصوتى:

لعل الأصوات العربية كانت فى تطور مستمر على لسان أهلها، فى عصر النشأة والنمو ويعد التغير الصوتى عاملا مهما ترجع إليه كثير من أمثلة

---

(١) المزهر ١/٢٢٩

(٢) انظر: فى اللهجات العربية ١٠١، ١٠٥، ١٨٦ مثل: عكوب وعكوف – النات والناس – الدغدغة والزغزغة وعليك وعليش.

الإبدال، وهذا التغير مبنى على أساس العلاقة بين الحروف المتبادلة فى المخرج أو الصفات كما قرر علماء اللغة، فالأصوات التى تتألف منها الكلمات ينسجم بعضها مع بعض.

يقول الأستاذ فندريس: «فى كل لغة ترتبط الأصوات بعضها مع بعض ارتباطا وثيقا، فهى تكون نظاما متجانسا، مغلقا، تنسجم أجزاؤها كلها فيما بينها، هذه هى أول قاعدة من قواعد الصوتيات، وهى ذات أهمية قصوى لأنها تثبت أن اللغة لا تتكون من أصوات منعزلة، بل من نظام من الأصوات»(١).

وهذا الانسجام يختلف بين قبائل العرب لاختلاف بيئاتهم وثقافاتهم وتبعا لنواح (طبيعية، فسيولوجية، ونفسية معا) (٢) ويترتب عليه إبدال بعض الحروف.

كما أن اختلاف الأزمان، والأجيال يؤدى إلى التغير الصوتى فى اللغة الواحدة، بل إن اللغة يعتريها التغير فى العصر الواحد والجيل الواحد بحيث تبدو آثاره واضحة من بلد إلى بلد بل إن هذا الاختلاف فى النظام الصوتى «يتغير إن قليلا وإن كثيرا من سن إلى أخرى» (٣).

وعلماء اللغة المحدثون يؤكدون أنه ليس من الممكن أن ينطق اثنان من أبناء أمة واحدة وفى جيل واحد، نطقا متماثلا فى كل الصفات (٤).

وهذا التطور الصوتى له آثاره فى نشأة بعض الصيغ، وقد تستعمل هذه الصيغ الجديدة – بجانب القديمة – فى بيئة لغوية واحدة، فى فترة معينة، وقد تموت القديمة وتبقى الجديدة فى الاستعمال،أو يعيش الاثنان معا، أما فى البيئات المتعددة فلا مانع من وجود كل فى موضعه.

ولهذا التطور الصوتى عوامل كثيرة ساعدت عليه، نتحدث عنها بالتفصيل فيما يلى:

---

(١) اللغة ٦٢ (٢) المصدر السابق ٧٥ – ٧٨

(٣) المصدر السابق ٦٦ واللغة بين الفرد والمجتمع (جسبرسن) ٣٥ ، ٣٦

(٤) الأصوات اللغوية ١٧٠

(أ) أعضـــاء النطـق :

تعزى بعض التبدلات الصوتية إلى هذا الجهاز الذى تتكون فيه الأصوات، على أساس اختلافه بين الشعوب، وما يجرى عليه من تطور، وما يكون فيه أو يحدث له، من عيوب نطقية، فقد ادعى بعض العلماء أن أعضاء النطق تختلف من شعب إلى آخر، تبعا لخصائص الشعوب، ومقوماتها، الوراثية، والاجتماعية، وجعل لذلك أثره فى التطور الصوتى [١] .

ولكن علم التشريح أثبت أنها لا تختلف بين الشعوب، ولم يقم دليل تشريحى أو لغوى مؤكد – حتى الآن – على هذا الاختلاف .

ومع ذلك فلابد أن يكون هناك تأثير ما وإن لم يوجد خلاف واضح، لأن أفراد البيئة الواحدة يختلفون فى طريقة النطق، كما أن الطفل يختلف عن أبويه[٢] وقد وصف الأستاذ « فندريس » هذا التغيير بأنه « خطير النتائج لأنه لا يبشر بشيء أقل من انقطاع التوازن فى النظام الصوتى » [٣] .

وإذا كان هذا فى بيئة واحدة، وشعب واحد، فلا ريب أن حدوث التخالف بين الشعوب يكون أكثر وضوحا، تبعا لما يحيط بالفرد فيها من مؤثرات، وعوامل واستعداد لأعضاء الجهاز الصوتى .

وهذا الجهاز لا يثبت على حال واحدة، بل إنه يتطور، ويختلف، تبعا لمراحل تكون الإنسان، ونموه، واختلاف البشر بعضهم عن بعض، كما يتطور كل ما في الكون فهو يخضع لما تخضع له كل الكائنات، من سنن النشوء والارتقاء، ولذلك تأثيره فى الأصوات ولو كان ضيئلا .

ولعل لعيوب أعضاء النطق أثرا فى تغير النظام الصوتى، فالملاحظ أن تلك الأعضاء يعتريها عيوب، منذ ولادة الطفل أو فى أثناء حياته، لمرض أو غيره من الأسباب فيترتب عليها عيوب فى أداء الأصوات .

ومن المحتمل أن بعض العرب الذين أخذت عنهم اللغة كان فى لسانهم عيوب نطقية، فنقلت إلينا الألفاظ، كما سمعت منهم، وفيها بعض الأصوات

---

(١) فقه اللغة د. وافى ١٣٠ (٢) اللغة ٦٤ (٣) المصدر السابق ٦٥

التى تأثرت بعيوب لسانهم، ولم ينتبه الرواة إليها، لأنهم كانوا مشغولين بعملية الجمع دون ملاحظات أخرى.

ومما هو مسلم أن اللثغة تتسبب فى إبدال بعض الحروف، كما فى نطق الراء التى تتحول عند الألثغ إلى غين، أو همزة، أو لام، فكلمة (يا ربى) قد تنطق: (يا غبى)، و (يا أبى)، و (يالبى) [1] .

ولا ريب أن لذلك أثرا ما فى الإبدال [2] .

(ب) الزمان والمكان :

الزمـــان :

كل شىء فى الوجود يتطور، تبعا لتطور الزمن، واختلاف عصوره، ولا سيما الكائنات الحية ، فهى تتغير من آن لآخر ، واللغة كائن حى ، وقد لوحظ أن نطق الفرد يختلف من فترة لأخرى، والطفل يقلد أبويه، والمحيطين به، ومع ذلك فانتقال اللغة من جيل إلى جيل، يتبعه شىء من التطور فى النظام الصوتى.

ولا ريب أن العربية كانت تنتشر بين القبائل ومرت عليها أزمان طويلة قبل نزول القرآن الكريم بها، وجمع الرواة لها.

وهذا يقتضى أن الألفاظ التى جمعت تشتمل على أصوات اعتراها التغيير، نتيجة اختلاف الزمن على الناطقين بها.

وقد حاولت الأمم – ولا تزال تحاول – أن تتصدى لنقل لغاتها بين الأجيال بوسائل مختلفة، كالتعليم والتلقين، وغيرهما، وهذا من شأنه أن يقلل من خطر التغيرات التى تطرأ عليها، ونذكر هنا أن العربية لقيت اهتماما كبيرا من أهلها، لأنها لغة القرآن الكريم، الذى كان سببا فى وصول أصواتها إلينا، على الرغم من توغلها فى القدم وتتابع الدهور عليها وما نجده من لهجات عامية منتشرة بيننا خاضع للنمط العام التطورى، وللزمن أثره فى اختلافها وتشعبها.

ومن المؤكد أن من أحداث الزمن فى اللغات ، بعض الأحداث الصوتية

---

(١) المزهر ١ / ٢٦٥ وتاريخ آداب العرب ١ / ١٥٤

(٢) بالغ الأستاذ حورجى زيدان فعزا ألفاظ الإبدال إلى علة طبيعية فى أعضاء النطق، وجعل ذلك عاما فى جميع الأمم. الفلسفة اللغوية ٣٩ ، ٤٠

التى تؤدى إلى تبدلات الحروف، فتنشأ بعض الألفاظ التى تدخل تحت ظاهرة الإبدال.

المـــكان :

لا جدال فى أن البيئة الطبيعية تؤثر على الإنسان، الذى يعيش بين أحضانها جسميا، وعقليا، وخلقيا، كما تؤثر على تصرفاته، ومنها اللغة، فهى أحد هذه التصرفات.

وعلم اللغة الحديث يثبت بالتجربة أثر اختلاف البيئات الصحراوية، والزراعية، والصناعية، وغيرها فى اتجاه القاطنين بها.

فمن سكن المدن الزراعية، أو الصناعية، وتأثر بالثقافات كان له نمط لغوى خاص، يختلف عن النمط الذى يتجه إليه سكان الصحارى، وهذا واضح فى البيئة العربية التى نعرف عنها هذا الاختلاف.

فالعربى البدوى – مثلا – يميل إلى تقليل الجهد العضلى، وسرعة النطق ورفع الأصوات، وجهرها، وشدتها على حين يميل العربى الحضرى، إلى الأناة والاطمئنان فى النطق، وتستدعى منازل المدن خفض الأصوات، وهمسها [1] والفروق النطقية بين هذا وذاك، كثيرة، ومبثوثة فى كتب اللغة.

فالطبيعة لها أثرها المهم فى الاتجاه اللغوى وبخاصة فى المفردات [2].

(جـ) الحيـــاة الاجتماعيـة :

العزلة والاختلاط الاجتماعى :

قد تتسبب البيئة الجغرافية من صحراء، وجبال، أو بحار، أو صعوبة المواصلات ومشقتها، أو نحو ذلك، فى عزل شعب عن الاتصال بالآخرين، فيختلف سلوكه وعاداته، كما يختلف التطور اللغوى عنده عما عليه غيره، من الشعوب، وقد يحدث ذلك لفريق من أبناء اللغة الواحدة فتختلف لغته، وطريقة نطقه، عن بنى جنسه، ولهذا أثره فى تغير الأصوات وتبدلها.

---

(١) فى اللهجات العربية ط ٣ ص ١٠٠ ، ١٠٦ ، ١٣٢

(٢) محاضرات فى اللهجات وأسلوب دراستها ص ٥١

كما أن الحياة، وحاجاتها، تتطلب الاختلاط والاتصال بين الشعوب، وبين جماعات الأمة الواحدة، لتبادل المنافع، الاجتماعية، تجارية، وزراعية، وصناعية وغيرها أو للهجرة أو للغزو، والسيطرة، فيحدث ذلك آثاره فى أحوال الأمم المختلطة، وتتأثر لغاتها بعضها ببعض ضعفا، أو قوة، كما يختلف أداء الأصوات فيها، وقد تنقسم اللغة الواحدة إلى لهجات.

وعن طريق هذا الاتصال بين الشعوب وأبناء اللغة الواحدة «كانت الانقلابات السريعة، الغريبة، فى تطور بعض اللغات، لأن الشعب الذى يتخذ لغة جديدة يطبق عليها أحيانا عوائد النطق فى اللغة التى تركها[1]، فيمكن قراءة صفحة من الفرنسية وقد بدا عليها طابع النطق الإنجليزى أو الألمانى، وإذا تكلم الإنسان لهجة أجنبية تعرض للأخطار، بسبب التردد فى صيغة الكلمات[2].

وبعض هذه التأثيرات يبدو فى الناحية الصوتية ولذلك أثره فى الإبدال.

الثقافة والحضارة :

للثقافة والحضارة آثارها على نواحى الحياة، ومنها اللغة.

وتتصل الأمم بعضها ببعض، بالود والتعاون، والمعاملات الطيبة، أو بالغزو أو الهجرة كما بينا، ولذلك أثره فى تبادل الثقافات، والحضارة والتقدم والرقى.

كما يتصل أبناء الأمة الواحدة بعضهم مع بعض، على النحو المتقدم، وتخضع اللغات للتأثير الثقافى، والحضارى، فينالها بعض التغيرات، وبعضها – ولا شك – صوتى، كالنبر والتنغيم، أو استبدال صوت لين بغيره، مما يناسب التحول الذى طرأ على الناطقين باللغة.

وقد حدث ما يشبه ذلك للغة العربية الفصحى، وقت نشأتها ونموها تأثرا منها بعوامل الحضارة، والثقافة، ونجم عنه بعض أمثلة الإبدال.

الحالة النفسية :

لا ريب أن ما يعترى الأمم من هدوء واستقرار، وقلق وترحال، وما تكون

---

(١) اللغة ٨٢ ، ٨٣ (٢) المصدر السابق ٦٣ ، ٨١

عليه من سرور، أو حزن، أو غير ذلك من أحوال نفسية، له آثاره على لغتها، وطريقة نطقها.

فالألفاظ قد تكون رقيقة ضعيفة، أو قوية عميقة، وقد تكون واضحة، أو غامضة، حسب الجو النفسى الذى يكون عليه المتكلم.

والأفراد - كالجماعات - يعتريها الرضا النفسى، والبهجة، والمتعة، والقلق والضيق، والمشكلات المؤرقة، وتبدو آثار ذلك فى نطقهم.

وقد عزا بعض الباحثين المحدثين تطور الأصوات من شدة إلى رخاوة، أو العكس إلى الحالة النفسية، فالدعة والاستقرار تنقل الأصوات من الشدة إلى الرخاوة، والقوة، والجبروت تدعو إلى العكس[1].

(د) عوامل اجتماعية أخرى:

هناك عوامل اجتماعية أخرى، كثيرة، قومية ودينية، وعصبية، وغيرها، لها آثار لغوية من إحياء صوت قديم أو إماتة صوت مولد، أو هجر صوت قديم، وتوليد آخر إلى غير ذلك.

وتبذل المحاولات فى العصر الحديث لتحقيق السيادة اللغوية، للعربية الفصحى على التخاطب بالعاميات، ومن أجل ذلك عادت بعض أصواتها كالثاء، والذال، والظاء، بعد التحريف الذى طرأ عليها إلى نطقها القديم الفصيح[2].

كما أن القرآن الكريم كانت له آثاره فى حفظ العربية، وأصواتها إلى اليوم وقد تعصبت القبائل العربية للهجاتها المتعددة وظل ذلك إلى أن توحدت فى لغة عامة.

وكم تصارعت العربية مع اللغات التى اتصلت بها، بعد الفتوح الإسلامية ولا شك أن هذا وغيره له آثار لغوية، يتعلق بعضها بظاهرة الإبدال.

٣ - دواع لغوية:

أهم هذه الدواعى، تفاعل الأصوات، والاشتقاق، وتغير المعنى، والتصحيف والتحريف، والكذب فى الألفاظ واختلاقها وكل ذلك يتصل باللغة، تركيبا، وأخذا وكتابة، وحديثا.

---

(١) الأصوات اللغوية ١٧٤

(٢) فقه اللغة للمبارك ٤١

(أ) تفاعل الأصوات :

هو تأثر الصوت اللغوى بما يجاوره مما قبله أو بعده من الحروف، وأهم ما يشمله : ما يسمى بالمماثلة، والمخالفة.

المماثلة :

الانسجام الصوتى، يقتضى أن تتسق الحروف بعضها مع بعض، فإذا تجاور حرفان متنافران فلابد من تغيير أحدهما، ويقع ذلك فى كل اللغات ومنها العربية.

ومن أمثلتها : انقلاب النون الساكنة ميما إذا وليها باء كما فى (أنبئهم) وقلب تاء الافتعال طاء، إذا كانت فاء الكلمة من حروف الإطباق كما فى (اصطبر – اطلع – اظطلم) .

وقد يقتصر التحول على الصفات، كتفخيم الراء إذا فتحت، أو ضمت، أو سكنت، بعد ضم أو فتح، وترقيقها فى غير ذلك.

وقد يؤدى هذا التفاعل إلى فناء أحد الصوتين فى الآخر كما فى اظلم، وادكر. وقد قسم المحدثون هذا التأثر إلى رجعى وتقدمى.

فالرجعى : هو الذى يتأثر فيه الصوت الأول بالثانى.

والتقدمى : هو الذى يتأثر فيه الصوت الثانى بالأول.

وتميل اللغة إلى الانسجام الصوتى إذ هى لغة الموسيقى اللفظية، والتركيبية كما سماها الأستاذ العقاد.

المخالفة :

إذا اشتملت الكلمة على صوتين، متماثلين فأحيانا تبقى صورتاهما، إذا لم يكن فى ذلك ما يخل بالانسجام، والسهولة فى النطق، وأحيانا يقتضى التخفيف تغير أحدهما، وهذا يرد فى كثير من اللغات السامية ومنها العربية.

فإذا ضمت الكلمة صوتين من نوع واحد فإن أحدهما قد يتغير إلى صوت لين طويل – غالبا – أو إلى أحد الأصوات الواضحة (ل . ن . م . ر .) التى تشبهها، وبخاصة اللام والنون (١) .

---

(١) الأصوات اللغوية ١٥٣ ، ١٥٤

ومن ذلك: عس: طاف بالليل والعوس: الطوفان بالليل، والرس: دفن الميت، والرمس: مثله [1] وإجاص: قيل فيها: إنجاص [2] ونحو ذلك.

فالمخالفة تكون عاملا لتخفيف ما كره النطق به، وبخاصة حين يكون نطق المتماثلين محتاجا إلى جهد عضلى [3].

ولذلك - بلا شك - أثره فى الإبدال.

(ب) الاشتقاق:

قد تتحد الكلمتان فى المعنى والحروف إلا حرفا واحدا، مع خلاف فى أصلهما الاشتقاقى، فيؤدى ذلك من حيث الظاهر إلى دخولهما فى نطاق الإبدال.

ولكن النظرة المتأنية تخرجهما منه، ومن ذلك: أعديته، وآديته، بمعنى: قويته، وأعنته، فقد ذكر ابن جنى: أن العين غير مبدلة من الهمزة، لأن كلا منهما مأخوذ من أصل يختلف عن صاحبه، فالأول مشتق من العداوة والثانى من الأداة [4].

وعلى هذا النحو تفسر طائفة غير قليلة من ألفاظ هذه الظاهرة، فتخرج عن دائرتها.

(جـ) تغير المعنى:

إن المعانى تتجدد وتتطور فى اللغات ولا سيما لغتنا العربية المبنية على المجاز، يقول الأستاذ العقاد: «فى هذه اللغة الشاعرة، توجد كلمات كثيرة، بقى لها معناها الحقيقى، مع شيوع معناها المجازى على الألسنة، حتى ليقع اللبس فى: أيهما السابق وأيهما اللاحق [5] فى الاستعمال، فالعزة يوصف بها المكان المنيع، والرجل المنيع فالعزيز فى الحالين غير السهل المباح والفريضة هى الخشبة التى فرضت، أو حزت وبينت فيها العلامات، ويقال: الفرائض، عن الحدود المبينة

---

(١) المصدر السابق ١٥٣، ١٥٤

(٢) المزهر ١/ ٢٦ وجاص عن الشيء: مال وحاد عنه.

(٣) انظر أمثلة كثيرة وتوضيحات لها فى الكتاب: (باب ما شذ فأبدل مكان اللام ياء كراهية التضعيف) والخصائص ٢/ ٢٢٧، ٢٣١

(٤) سر الصناعة ١/ ٢٤٢، ٢٤٣ (٥) اللغة الشاعرة ٣٩

الواضحة[1] وكلمة: رأس، تطلق على رأس الإنسان، ورأس الجبل ورأس النخلة، ثم أخيرا رأس الحكمة[2].

وهذا التطور المعنوى، قد يتسبب فى مساواة لفظ بآخر، فيتفق معه فى المعنى، وقد يتصادف أن تتفق - حينئذ - الكلمتان فى جميع الحروف إلا حرفا واحدا وقد يكون أحد المعنيين مجازا إلا أنه عرف واشتهر، فكانه حقيقة بكثرة الاستعمال على ما سبق.

ولو أن اللغويين حاولوا الفصل بين المعانى، وبيان حقيقتها، ومجازها، وصلة هذه المعانى بعضها ببعض لأدى ذلك إلى تفسير قدر كبير من الألفاظ التى تدخل ظاهرة الإبدال.

وقد يكون من ذلك كلمتا: ثوم وفوم فالفاء ليست بدلا من الثاء لاختلاف المعنى، فالفوم، الحنطة، وما يختبز من الحبوب، والثوم: معروف، وهو يختلف عن الحبوب التى تختبز[3].

وبذلك يتبين لنا أن التغير المعنوى له أثر فيما عد من ألفاظ هذه الظاهرة.

(د) التصحيف والتحريف:

التصحيف خاص بنقط الحروف المتشابهة فى الشكل مثل (ب ت ث - ج ح خ - د ذ - ر ز - س ش - ص ض - ط ظ - ع غ - ف ق) وخاصة عند استعمال الحروف فى تكوين الكلمات.

والتحريف خاص برسم الحروف المتشابهة وشكلها مثل: الدال والراء، والذال، والزاى والدال واللام، والنون والزاى.

والتصحيف قسمان:

١ - تصحيف الخط:

وينشأ من اختلاط نقط الحروف المتشابهة، وفى المعاجم كثير من ذلك، مثل: جفأه وحفأه: صرعه، وخفأه: اقتلعه فضربه به[4].

واحتمال التصحيف الكتابى فى هذا ونحوه قوى.

---

(١) المصدر السابق ٤١ (٢) فى اللهجات العربية ص ١٦٣

(٣) سر الصناعة ١/ ٢٥٢ والقاموس ٤/ ١٠١، ١٨٧

(٤) انظر هذه الكلمات فى باب الهمزة من القاموس وغيره من المعاجم.

٢ - تصحيف السمع :

وينشأ من نطق الأحرف المتقاربة، مخرجا أو صفة، كالهمزة والهاء فى اتمهل واتمأل والباء والميم فى كثب وكثم وهذا - وأمثاله - مما يتوهم فيه الإبدال.

وقد وقع التصحيف من فحول رواة اللغة وعلمائها، أمثال الخليل، والأصمعى، وأبى عمرو بن العلاء، وأبى زيد، وأبى عبيد، وغيرهم [١].

فلعل هذا كان له أثر، فى نشأة بعض الكلمات التى عدت من الإبدال.

(هـ) صنع الألفاظ واختلاقها :

لقد زيد فى الأشعار على لسان بعض القبائل العربية، لإرادتها زيادة أمجادها ومفاخرها، كما أن الرواة زادوا فى تلك الآثار الأدبية، أيضا وقد اتهم بذلك خلف الأحمر، وحماد الرواية، كما يذكر ابن سلام الجمعى [٢].

ولا ريب أن اللغة بألفاظها، تعتمد - بعد القرآن الكريم - على التراث الأدبى، وبخاصة الشعر، الذى كان يحتل الصدارة فى البيئة العربية ويسرى على الألسنة فى جميع الأصقاع، فتنتشر لذلك الألفاظ، ولو كانت فى أبيات مصنوعة.

كما ذكر السيوطى أن ألفاظا كثيرة قد اخترعت، وعقد لذلك أبوابا فى مزهره [٣].

ومما أورده من الألفاظ المصنوعة، (عنشج) : ثقيل وخم، ذكر أنه مصنوع و(ضهيد) : الرجل الصلب، عن الخليل - كذلك - أنه مصنوع [٤].

وذكر الدكتور السامرائى : أن السعة التى أضيفت للمعجم العربى، بطريقة الإبدال قد توسع فيها، وربما دخلها شىء من التجوز والتوسع والكذب، وذلك أنك تجد الكثير مما عرض له الإبدال - كما نص عليه الأقدمون - يفتقر إلى الشاهد الصحيح.

---

(١) المزهر ٢ / ١٨١ (٢) طبقات فحول الشعراء ٣٩ - ٤١

(٣) هى : النوع الثانى (معرفة ما روى من اللغة ولم يصح ولم يثبت) والنوع الثامن «معرفة المصنوع» والنوع العاشر «معرفة الضعيف والمنكر والمتروك» والنوع الحادى عشر «معرفة الردىء والمذموم».

(٤) المزهر ١ / ٩٠

وقد ضرب أمثلة لذلك من المعاجم ومنها: بعير مبلند ومكلند، إذا كان شديدا، وقد ابلندى يبلندى ابلنداءا، واكلندى يكلندى اكلنداءا: إذا اشتد.

ثم يقول: وما أظن أن العربية تفيد من هذه السعة غير المقتضاة [1].

ويبدو لنا أن هذا الحكم مطلق، يجب تخصيصه بما روى عمن ليس من أهل الضبط والإتقان [2].

وبعد هذا نقول: إنه لا يبعد أن تكون بعض الألفاظ المخترعة قد أضيفت إلى اللغة، وكان لها أثرها، فى ظاهرة الإبدال.

* * *

(١) التطور اللغوى التاريخى ١١٥

(٢) المزهر ١/٦٣ – ٦٧ ، ١٢٠ – ١٢٤ ، والمعاجم اللغوية ٦٨

الدراسة التطبيقية لظاهرة الإبدال

وهنا نأتى إلى تطبيق هذه الأسباب على كلمات استعملت فيها بعض الأصوات مكان بعض، لنصل بشأنها إلى الرأى الحق، والتفسير العلمى الصحيح، المبنى على التحليل، والفحص الدقيق.

التبادل بين الهمزة وحروف العلة

قسم القدماء هذا الإبدال إلى واجب مثل: كساء، وبناء، وصحراء، وإلى جائز مثل: أقتت، ووقتت، وألل، ويلل، وإلى شاذ مثل: جأن فى جان، والضألين، فى الضالين وهذا ما يسمونه بتحقيق الهمزة.

كما أنها قد لا تحقق فى بعض الألفاظ مثل: لرووف – قريت – توضيت.

وعلماء العربية القدامى يعدون ذلك من باب الإبدال، فالهمزة المحققة مبدلة من الألف، أو الواو أو الياء، والمسهلة عكس ذلك أبدلت منها هذه الحروف.

وقد قسموا هذا الإبدال إلى واجب، وجائز، وشاذ حسب قواعد التصريف، فى الموافقة، أو المخالفة للقياس.

والملاحظ أنه لا توجد علاقة صوتية، تسوغ التبادل بين الهمزة، وهذه الثلاثة، وقد أوضح بعض المحدثين المفارقات بين الثلاثة المذكورة، وبين الهمزة، من عدة وجوه:

١ – الألف صوت انطلاقى مجهور، أى حركة أو مصوت، بالإطلاق الحديث، على نقيض الهمزة تماما (١).

٢ – الهمزة من الحنجرة، والواو من أقصى اللسان، والياء من وسط اللسان، مع ما يحاذى الموضعين من الحنك الأعلى.

٣ – الهمزة صوت انفجارى شديد، وهما انطلاقيان (لينان).

٤ – الهمزة صوت ذو وجود صوتى وسياقى (فونوتيكى وفونولوجى) أما هما فوجودهما انتقالى سياقى (فونولوجى) فحسب، مهما تكن ظروف وجودهما فى المادة اللغوية.

---

(١) القراءات القرآنية فى ضوء علم اللغة الحديث ٢٥

٥ – الهمزة صوت مهموس، أو لا هو بالمهوس ولا بالمجهور، وهما مجهوران، إلا فى حالة خاصة، وهى حالة الوقف، على مثل العفو والسعى، حيث يمكن أن يتعرضا للهمس فى هذا الموقع، وهو ما يقع أحيانا لحركات أواخر الكلمات، فى حالة ما سماه القدماء بالروم، وهى حالة من حالات الوقف [١] .

بيد أن القدماء يرون وجود ثقل، فى حروف العلة، ولذلك قلبت همزة للتخفيف، وذلك متحقق – أيضا – في تحويل الهمزة إلى هذه الحروف، حتى إنهم قالوا فى تعريف الإعلال: إنه « تغيير حروف العلة ، بالقلب ، أو التسكين، أو الحذف، للتخفيف » وعدوا من حروف الإعلال الهمزة [٢] .

وقالوا: إن « الهمزة حرف شديد، مستثقل، يخرج من أقصى الحلق، فلذلك الاستثقال شاع فيها التخفيف، لنوع من الاستحسان » [٣] .

ومن هنا منع وقوع الهمزة فى كلمة، فاء، وعينا معا، أو عينا ولاما معا، وعلل ذلك ابن جنى بثقل الهمزة، فكيف بالهمزتين معا؟ قال فى سر الصناعة:

« وإنما لم تجتمع الفاء والعين، ولا العين واللام همزتين، لثقل الهمزة الواحدة، لأنها حرف سفل فى الحلق، وبعد عن الحروف، وحصل طرفا، فكان النطق به تكلفا، فإذا كرهت الهمزة الواحدة، فهم باستكراه الثنتين ورفضهما – لاسيما إذا كانتا مصطحبتين غير مفترقتين فاء وعينا، أو عينا ولاما – أحرى، فلهذا لم تأت فى الكلام، لفظة توالت فيها همزتان أصلا » [٤] وذكر ابن سيدة أن حروف العلة تعل لطلب الخفة والكثرة والمناسبة [٥] .

والمحدثون على وفاق مع الأقدمين، فى سبب التغيير المذكور يقول أحدهم: « ولسنا نشك لحظة فى أن ما تعوده اللسان العربى فى معاملته للواو والياء، والهمزة، ناشىء عن بعض الكراهات، التى لم يألفها، غير أن أسباب هذه الكراهات، تحتاج فى الحقيقة إلى شىء من التحليل، يكشف عن مدى ما تحتوى من ثقل، أو تنافر، يلجأ الناطق حياله إلى المخالفة، أو التصرف، بصورة ما، هربا من هذا الذى يكرهه » [٦] .

---

(١) المصدر السابق ٤٨ والأصوات اللغوية ٤٣

(٢) القواعد والتطبيقات ٦ ، ٧

(٣) شرح الشافية « العصام » ١٥٠

(٤) سر الصناعة ١ / ٨١

(٥) المخصص .

(٦) القراءات القرآنية ٧٨

فلهذا كان الإبدال بين الهمزة، وتلك الحروف الثلاثة، ولأجله - أيضا - خففت الهمزة، بتسهيلها، وجعلها بين بين، وكل ذلك من ضروب التخفيف، وألوانه.

ويبدو لنا أن التفسير الحق لهذا التغيير يقوم على أساس اختلاف اللهجات وشئون الاجتماع العربى، فقد روى لنا أن الذين يحققون الهمزة، هم قبائل وسط الجزيرة وشرقيها، فهى - أساسا - من لهجات تميم وقيس وبنى أسد ومن جاورهم.

والهمزة لأنها صوت حنجرى، انفجارى، شديد، مما يناسب البيئة البدوية، وقد ذكرنا أنها ثقيلة فى النطق، بما يجعلها مناسبة لطبيعة البدوى، دون الحضرى.

كذلك فقد روى أن التسهيل - فى أصله - لهجة البيئة المتحضرة، وهم أهل الحجاز، وبخاصة قريش فى مكة، والأوس والخزرج فى المدينة، ولم يكن الحجازيون جميعا بعيدين عن تحقيق الهمز إلى تسهيله، بل منهم من استهواه تحقيقه، وهم من سماهم سيبويه (أهل التحقيق) فكانوا ينطقون بالهمز كإخوانهم من القبائل المحققة له، يقول سيبويه، «وقد بلغنا أن قوما من أهل الحجاز، من أهل التحقيق، يحققون نبىء وبريئة، وذلك قليل ردىء» (١).

ويذهب الدكتور الراجحى إلى أنه «من المرجح أن القبائل الحجازية التى كانت تجنح إلى تحقيق الهمزة هى تلك القبائل التى كانت تسكن أطراف الحجاز، مجاورة لأهل البادية، من وسط شبه الجزيرة وشرقيها» (٢).

ولعل من هؤلاء المجاورين للبدو قبيلة (عكل) التى نسب إليها ابن جنى همز بعض الكلمات، فقد قال عن كلمة (ترقؤة) إنها لغة لبعض عكل، ووجه القول عليها - عندى - أن تكون مما همز من غير المهموز، بمنزلة: استلأمت الحجر، واستنشأت الرائحة (٣).

و (عكل) من «طابخة» (٤) و «طابخة» من «خندف» (٥) التى سكنت

---

(١) الكتاب ٢/١٧٠ واللسان ١/١٤ (٢) اللهجات العربية ١٠٦

(٣) الخصائص ٢/٢٠٧

(٤) وهم بنو عوف بن وائل بن قيس بن عوف بن عبد مناة. نهاية الأرب ٣٦٧، ٣٦٨

(٥) من مضر من العدنانية وهم بنو طابخة واسمه عمرو بن إلياس بن مضر وللتسمية بطابخة قصة. انظر: نهاية الأرب ٣٢٢

الحجاز «فلعل» (عكل) كانت تسكن أطراف الحجاز، مجاورة للقبائل البادية، في وسط شبه الجزيرة، وشرقيها»[1].

وقد اتخذت اللغة المثالية الهمز من مبادئها، بحيث ينطق به المتكلم الفصيح، في مجال استخدام اللغة المشتركة، في الشعر، والنثر، بدويا كان أم حضريا.

التبادل بين حروف العلة والسواكن (الصوامت)

١ – بالله – والله – الثعالب – الثعالى – لببت – لبيت.

٢ – اتصل واتقى – ايتصل وايتقى – اتسر واتبس – ايتسر وايتبس.

٣ – علج وعشج وحجتج – على وعشى وحجتى – شجرات – شيرات.

٤ – تصدد – تصدى – تصدية.

٥ – خامس – خامى – سادس – سادى.

٦ – قراط – قيراط – شراز – شيراز.

٧ – تقصص – تقصى.

٨ – تقضض – تقضى.

٩ – تمطط – تمطى.

١٠ – تلظظ – تلظى.

١١ – تطاللت – تطاولت – تلك – تيك.

١٢ – أما – أيما.

١٣ – تظنن – تظنى – تسنن – تسنى.

١٤ – هناه – (أصلها هناو) – هنه – هنا – هذه – هذى.

---

(١) اللهجات العربية في القراءات القرآنية ١٠٧

التحليل والتفسير :

هذه بعض الأمثلة، التى حدث فيها التبادل، بين حروف العلة، والسواكن.

وقد قيل لنا: إن فيها إبدالا، ونحن نلاحظ أن السواكن (الصوامت) – فى عمومها – تختلف مخارجها، عن مخارج حروف العلة، كما تختلف عنها فى كثير من الصفات، ومن هنا لا يصح التبادل بينها، لفقدان العلاقة الصوتية، وعلم اللغة الحديث قد وضع نصب أعيننا هذا الشرط، للحكم بالإبدال، فإذا فقد فإن التاريخ اللغوى يكشف لنا عن أسباب الخلاف، بين الألفاظ، المتقدمة، وأشباهها، وذلك يكمن فى اختلاف عوامل الاجتماع، والحياة العربية، فى بيئاتها المختلفة.

فالعرب تختلف طبيعة البيئة، التى يعيشون عليها، من صحراء، وسهول، ونماء وخصب، وزراعة، وتجارة، وصناعة، كما أن الأحوال البدوية، التى تتصف بها بعض القبائل، والأحوال الحضرية التى تعيشها قبائل أخرى، كانت تترك آثارها على النطق، فيختلف هنا عن هناك.

ولا ريب أن البدو يميلون إلى الأصوات الجلدة الشديدة على حين يميل الحضر إلى الأصوات اللينة الرخوة، وكتب اللغة تؤيد ذلك.

وهى تثبت أن استعمال الياء مكان الباء، والعكس، يشبه أن يكون لغة[1].

كما أن استعمال التاء، فى مكان الواو، أو الياء أو العكس من خصائص جماعة بأعيانهم، والأول لغة لأكثر العرب، والثانى خاص ببعض الحجاريين الذين لا يعبأون بتلاعب الحركات، فيقولون اوتصل – اوتقى – ايتسر – ايتبس – يوتصل – يوتقى – ييتسر – ييتبس – موتصل – موتسر – موتبس، ثم يقلبون ما يستحق القلب من الواو أو الياء تبعا للحركات السابقة عليها[2].

ومع أن الجيم والياء متحدتان فى المخرج، وبعض الصفات، مما يسوغ الإبدال، بينهما، فإن استعمال كل منهما بدل الأخرى ورد على أنه لهجات، فقد

---

(١) المزهر ١ / ٤٧٣ (٢) المصدر السابق ١ / ٤٦٠ – ٤٧٥

عرف إبدال الياء جيما عند قضاعة [1] والجيم تناسب تلك القبيلة البدوية، كما أن الياء تناسب المتحضرين من غيرها.

واستعمال اللام مكان الواو، أو الياء، أو الهاء مكان الياء، لهجات عربية، كما نقل إلينا علماء اللغة ورواتها [2].

وقد يكون التبادل بينها، وبين السواكن (الصوامت) ناشئا عن كراهة تكرير الصوت أكثر من مرة، وهو ما يعرف لدى المحدثين بالتماثل بين الأصوات، ويلجأ من أجل تخفيفه إلى طريقة المخالفة، وهى تحويل أحد المتماثلين إلى صوت لين، ويتحقق ذلك فى قلب الباء، والدال، والراء، والسين، والصاد، والضاد، والطاء، والظاء، والميم، والنون، إلى صوت لين، كما فى لبيت، وتصدى، وغيرها، من الأمثلة المذكورة.

وهذا يثبت – بوضوح – أن هذه الاستعمالات – فى غالب أمرها – راجعة إلى اختلاف اللهجات، وحسن ذوق العربى بعد أن تحضر.

* * *

(١) المصدر السابق ١ / ٢٢٢

(٢) المصدر السابق ١ / ٢٢٥ ولسان العرب ٣٣٧٢ يقول: وذى بكسر الذال للمؤنث، وفيه لغات: ذى وذه إلخ.

التبـــادل بين الصـــوامت

١ – أن – عن – رجل إنزهو وعنزهو (١) مؤتل – معتل – لأل – لعل – كثأ – كثع – التمىء – التمع – أير – هير (٢) – أرقت – هرقت.

٢ – بنات بخر – بنات مخر (٣).

٣ – ذعـالت - ذعـالب (٤) – صلت – صلب – نات – ناس – اصطبـر – اطرد – اظطلم – تابوت – تابوه.

٤ – جثوت – جذوت – جدث – جدف (٥).

٥ – نفح ينفح – نفخ ينفخ (٦).

٦ – زقر – سقر – صقر – زمزمة – صمصمة (٧).

٧ – سده – شده (٨) – جعسوس – جعشوش (٩).

٨ – الطجـع (١٠).

٩ – عليش – عليك.

١٠ – قشطت – كشطت (١١).

التحليل والتفسير :

وردت تلك الأمـثلة، على أنهـا من باب الإبدال، ولكـن هناك شـروط يجب توافرها، ليحكم به بين كلمتين، أو أكثر وهى :

١ – وجود العلاقة الصوتية كما تقدم.

---

(١) من الزهو . (٢) للصـــبا .

(٣) سحائب يأتين قبل الصيف، بيض، منتصبات فى السماء.

(٤) ذعالب : جمع ذعلبة بكسرتين بينهمـا سكون، وهو طرف الثوب أو مـا تقطع منه، كذا فى اللسان، وفى الأشمونى جمع ذعلوب كعصفور ٤ / ٣٣٩ (٥) القبـــــر .

(٦) النفخ للنار والنفخ به يشتد اللهب ويقوى اشتعاله.

(٧) الجمـاعة . (٨) رجل مسدوه فى معنى مشدوه.

(٩) كل ذلك إلى قمأة، وقلة، وصغر. (١٠) بمعنى اضطجع .

(١١) نزعت وقلعت وكـشـفت تقول كـشطت الجل عن ظهـر الفـرس وقـشطتـه : نزعتـه وكشفته وكذلك غيره من الأشباه. اللسان ٩ / ٢٥٥ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣

٢ – اتحاد الكلمتين فى المعنى على سبيل الحقيقة.

٣ – اتحاد الكلمتين فى الاشتقاق.

ولو تأملنا تلك الكلمات فإنه يبدو لنا أن بعضها تتحقق فيه الشروط، وبعضها لا، وبناء على ذلك، فلابد من النظر فيها، نظرة، فاحصة، على أساس أسباب الإبدال التى شرحناها، وبتطبيقها عليها يبدو أن الكلمات المختلفة فى حرف تنتسب إلى واحد، أو أكثر من تلك الأسباب المتقدمة.

فهنا يمكن أن نلاحظ كلمات تتوافر فيها العلاقة الصوتية، بين الحروف المختلفة منها (كالهمزة والعين، والهاء) و (الباء والميم) و (الثاء والذال والفاء) و(الحاء والخاء) و (الزاى والسين والصاد) و (القاف والكاف).

كما نلاحظ كلمات أخرى لا تتوافر بين حروفها المختلفة هذه العلاقة.

ومع توافر العلاقة الصوتية فإن الفيصل فى الحكم هو وجود باقى الشروط.

ويبدو من الملاحظات اللغوية أن كلا منها قد فقد جانبا من تلك الشروط، أو اتجه اتجاها خاصا تحكمه عوامل الاجتماع العربى.

ونحن نحلل لك ذلك بما يبين أن أغلب تلك الأمثلة لا يدخل فى باب الإبدال، كما ذهب إلى ذلك الأقدمون، ومن تابعهم من المحدثين.

فمن الحروف التى تقاربت مخاربها، وصفاتها (الهمزة والعين) و (الثاء والفاء)، (والزاى والسين والصاد) و (القاف والكاف) فوجد بينها مسوغ الإبدال، لكن كتب اللغة تذكر أنها لهجات.

فإبدال العين من الهمزة فى مثل (أن – عن) يسمى بالعنعنة وهى منسوبة إلى بنى تميم، والظاهر أن العنعنة كانت خاصة بإبدال همزة (أن) ثم امتد الاصطلاح إلى غيرها، في مثل (إنزهو ٠ عنزهو) ولذلك ذكر ابن جنى أنهم أبدلوا الهمزة فى غير (أن) سواء كانت أولا أو وسطا ووافقه على ذلك الدكتور أنيس، بل حكى عن الأصمعى صورا أخرى فى آخر الكلمة للعنعنة مثل كثأ اللبن = كثع، والتمىء لونه = التمع [1].

---

(١) سر الصناعة ١ / ٢٣٤ والمخصص ١٣ / ٢٧٤ وفى اللهجات العربية ط ٣ ص ١١١

والثاء والفاء فى مثل (جدث وجدف) عند قبيلين من العرب فالثاء للتميميين، والفاء للحجازيين [١] .

والزاى والسين، والصاد فى مثل (زقر – سقر – صقر) فيها تقريب للصوت من الصوت، فقد قربت السين والصاد من القاف بإبدالهما زايا، لأن القاف مجهورة، وهما مهموستان فقلبتا إلى حرف يوافق القاف فى الجهر، ومن نفس مخرج السين، والصاد، وهو الزاى، وهذا التقريب من خصائص نطق قبيلة (كلب) [٢] وكذلك التقريب فى زمزمة وصمصمة يعد من اختلاف اللهجات[٣] .

والعلاقة بين القاف والكاف فى مثل (قشطت وكشطت) قوية فلا مانع من التبادل بينهما، وهما – مع ذلك – لهجتان فالقاف تميمية، لاختيار تميم للأصوات المستعلية القوية، والكاف حجازية، لاستفالها، ورقتها [٤] .

ومن الحروف التى تباعدت فى المخرج وبعض الصفات (التاء والسين والهاء) و (الشين والكاف) .

ونلاحظ أن رواة اللغة ينسبونها إلى طوائف عربية مختلفة .

فاستعمال التاء مكان السين فى مثل (نات وناس) تنسب إلى خثعم وزبيد، من قبائل اليمن البدوية وتسمى بالوتم [٥] .

واستعمال الهاء مكان التاء فى (تابوه وتابوت) يبدو أنه لهجة عربية، مثل (الفراه) فى لغة عامة عقيل، و (وأد البناه من المكرماه) فى لغة طيىء،

---

(١) المزهر ٢٢٤١ والمخصص ١٣ / ٢٨٦

(٢) سر الصناعة ١ / ٢٠٨

(٣) يؤكد ذلك وجود مصدر اشتقاقى مستقل لكل منهما وعدم اتفاق المعنى فى مادتيهما، من جميع الوجوه، وعند فتح الحرفين المكسورين تبقى الصمصمة بمعناها، وتنصرف الزمزمة إلى الصوت البعيد الذى له دوى فاللفظان لم يتفقا من جميع الوجوه سواء المعنى أو الضبط والمطلوب تحققه فى الإبدال .

انظر: القاموس ٤ / ١٦٣ ، ١٤٧ واللسان ١٥ / ٢٤١ وسر الصناعة ١ / ٢٢٠ والخصائص ٢ / ١٤٢ ، ١٤٣

(٤) سر الصناعة ١ / ٢٧٨ واللسان ٩ / ٢٥٥

(٥) المزهر ١ / ٢٢٢ واللهجات العربية ٦٤ وفى اللهجات العربية ١٠٥

ويمكن أن يكون ذلك جرى – أولا – فى حال الوقف، ثم سرى إلى الوصل كما ذكر ابن جنى (١) .

واستعمال الشين مكان الكاف فى مثل (عليش – عليك) لهجة ربيعة، ومضر، وهما من القبائل البدوية، وتسمى بالكشكشة (٢) .

فسبب اختلاف اللهجات واضح فى كل ما تقدم.

واختلاف المعنى يجعل من الصعوبة القول بالإبدال بين الثاء والذال، فى مثل سابق هو (جثوت وجذوت) فالكلمتان – على الرغم من تقارب الحرفين مخرجا، وصفة، مختلفتان معنى، فالجثو هو: القيام على الركب، والجذو: على أطراف الأصابع، فلا إبدال لاختلاف المعنيين (٣) .

وكذلك إذا كان المعنى واحدا فى الكلمتين إلا أنه فى إحداهما حقيقى، وفى الأخرى مجازى، كما فى وقوع التاء موقع الباء فى (ذعالت وذعالب)، فمادة (ذعت) تدور حول الإضعاف، والإنهاك، فيتفق مع معنى (الذعالب) – التى هى أخلاق الثياب – على سبيل المجاز، فيكون جمعا بين حقيقة، ومجاز، وليس ذلك إلا نقضا للشرط الأساسى الذى هو اتحاد المعنيين على سبيل الحقيقة(٤) .

وكذلك (صلب وصلت) فالصلب: هو الرجل الشديد، والصلت الرجل الماضى فى الحوائج، ويفهم منه الشدة، على سبيل المجاز.

واختلاف الصيغة يجعل الحكم بالإبدال غير سائغ كالمثال السابق، فقد اختلفت هيئة الصيغة، فالكلمة الأولى (صلب) مضمومة الصاد، والثانية (صلت) مفتوحتها، وذلك إخلال بشرط الإبدال (٥) .

وكما فى استعمال الحاء مكان الخاء فى (نفح ونفخ) لأن ضبط التصريف مختلف، فأنت تقول فى المضارع والأمر من الأول (ينفح – انفح) بفتح الفاء – ومن الثانى (ينفخ – انفخ) بضمها، فاختلفتا صيغة، فلا يقع بينهما تبادل(٦) .

---

(١) سر الصناعة مخطوطة الأزهر الوجه الثانى من الورقة ١٠٧ والمحتسب ١ / ١٢٩، ١٣٠

(٢) المزهر ١ / ٢٢١ والخصائص ٢ / ١١ (٣) القاموس ٤ / ٣٦١، ٣٦٢

(٤) المصدر السابق مادة «ذعت».

(٥) المزهر فصل التصحيف واللسان ٢ / ١٥، ٣٥٨

(٦) القاموس ١ / ٩٩، ٣٢٠

والتبادل بين الهمزة والهاء كما فى (أير وهير ودرأ ودره) سائغ لوجود العلاقة الصوتية.

وقد يقويه - فى بعض الصيغ - أن عدم القول بالإبدال يؤدى إلى وجود وزن لا يعرف فى العربية، كما فى (هرقت وأرقت) فلا يوجد وزن (هفعل) حتى يحمل عليه إذا لم نحكم بالإبدال.

وفى استعمال اللام مكان الضاد فى مثل (الطجع) شذوذ فالذى يبدو أن الضاد العربية - وإن تقارب مكان خروجها مع اللام - فى نطقها صعوبة تجعل التبادل بينهما غير مستساغ، وبخاصة لامتياز الضاد بالاطباق، وقد وصف الصرفيون هذا الإبدال بالشذوذ [1] أو الندور [2].

واختلاف الاشتقاق يمنع القول بالإبدال فى بعض الكلمات، مثل (بنات بخر، ومخر) فمع أن الباء، والميم متفقان فى المخرج، وكثير من الصفات فإن المعاجم تذكر تصرفا لكل من (بحر - بخر - مخر) [3] مما يؤكد أن كلا من الكلمتين أصل، لاختلاف الاشتقاق، ومع ذلك فمن نطق بالباء كان بدويا، إذ الباء صوت شديد، يناسب البدوى، ومن نطق بالميم كان حضريا، إذ الميم صوت متوسط بين الشدة، والرخاوة، فهو مناسب للحضرى.

ولقوانين التفاعل بين الأصوات دخل فى تحويل بعض الحروف بحيث تصير الكلمات على هيئة توهم حدوث الإبدال، بينها، كما فى اجتماع الصاد، أو الضاد أو الطاء، أو الظاء مع التاء، فتقلب التاء طاء وهذا نتيجة تأثر الأصوات بعضها ببعض، ويتحقق ذلك فى صيغة (افتعل) إذا كانت فاؤها أحد الحروف المطبقة السابقة، كما فى (اصطبر، واطرد، واظطلم) إذ لا يمكن النطق بالتاء المهموسة المستفلة، بعد الحروف المطبقة، فدعا ذلك إلى نوع من التماثل، والانسجام، فحولت التاء إلى طاء، لتماثل الضاد، وأخواتها فى الإطباق، والاستعلاء، ويعرف هذا التغيير - فى الاصطلاح الحديث - باسم المماثلة، ولها نوعان، تقدمى، ورجعى.

وقلب تاء (افتعل) على الصورة السابقة من النوع التقدمى الذى يتأثر فيه الصوت الثانى بالأول.

---

(١) الأشمونى ٤ / ٢٨٠ (٢) التصريح ٢ / ٣٦٧

(٣) القاموس ١ / ٣٦٧، ٣٦٩، ٢ / ١٣١

وقد يقلبون التاء من جنس الحرف الأول، فيقولون اصبر – اظهر – اظلم – بتشديد الصاد والظاء – ، وهذا التأثر رجعى، تأثر فيه الأول بالثانى.

ويقال – أيضا – فى اظلم بتشديد الظاء: انظلم، وهذا هو ما يعرف فى علم الأصوات باسم المخالفة، وهو أن الكلمة قد تشتمل على صوتين متماثلين، كل المماثلة، فيقلب أحدهما إلى صوت آخر، لتتم المخالفة بين الصوتين المتماثلين[1].

والتصحيف يلعب دورا مهما فى اتفاق الكلمات، مما يوقع فى توهم الإبدال، كما هو ملاحظ بين الباء والتاء فى (صلب وصلت) والحاء والخاء فى (نفح ونفخ) وكما فى استعمال الشين مكان السين فى (جعسوس وجعشوش) إذ المخارج متباعدة، والخلاف حاصل فى بعض الصفات، فلا مسوغ للتبادل، فمن الجائز أن تكون الباء والشين هى الأصل، وقد نشأت عنها التاء والحاء والسين بطريق التصحيف، ويؤيد ذلك فى المثال الأخير وجود المادة فى المعاجم بالشين دون السين.

كما أن اللثغة التى تلحق اللسان العربى قد تحدث تأثيرها فى تغيير الكلمات مثل (السدة والشدة) فمن المحتمل أن يكون ذلك لثغة لحقت النطق العربى عندما تكلم باللفظ شخص أجنبى عن اللغة ويؤكد ذلك – كما ذكرنا – عدم ورود المادة بالسين فى معاجم اللغة العربية[2].

ومن هذا التحليل الدقيق للكلمات يتبين أن الأسباب التى ذكرناها كان لها أثر كبير فى دخول كثير من الكلمات فى الإبدال مع أنها ليست منه.

ولو أننا – بالبحث الواعى – تتبعنا كل الكلمات، التى يظن فيها الإبدال، أو قيل به فيها، وهى كثيرة فى بطون المعاجم، وكتب اللغة، وطبقنا عليها تلك الأسباب لأخرجنا الكثير منها من دائرة الإبدال، فلم يبق فيها منه إلا القليل[3].

وبذلك نكون قد حللنا مشكلة كبرى، من مشكلات لغتنا العربية فلا تبقى تلك الألفاظ عبئا ثقيلا على مواد العربية، وتصرفاتها.

* * *

(١) سر الصناعة ١ / ٢٢٤ ، ٢٢٥ والخصائص ٢ / ١٤١ والأصوات اللغوية ١٥٢

(٢) انظر باب الهاء فى القاموس ولسان العرب.

(٣) انظر فى تفصيل ذلك بحثنا بعنوان (رؤية لغوية جديدة للإبدال فى الحروف الصامتة) بمجلة كلية اللغة العربية فى القاهرة العدد العاشر ص ٢١٠ وما بعدها.